

الملك بلدوين الأول وإخلاصه للمشروع الصليبي

أ/ جمال محمد حسن الزنكي
جامعة الكويت - كلية الآداب - قسم التاريخ

ملخص:

أثار انتباهي تشكيك بعض المؤرخين المحدثين في مدى إخلاص بلدوين الأول - أول ملك صليبي لمملكة بيت المقدس - للمشروع الصليبي، فحاولت بهذه الدراسة النقدية التحليلية التحقق من ذلك خاصة قبل فترة تتويجه في سنة 1100م وهي محل الإشكالية التي أثارها هؤلاء المؤرخين. وقد بذلت جهدي أن أكون موضوعياً قبل أن أصل إلى نتيجة حول هذه الإشكالية، فبلدوين شارك في الحملة الصليبية الأولى ولكن أعماله وطموحاته الشخصية - كانت فيما يبدو - بعيدة عن أهداف الحملة، فهو لم يشارك بأهم إنجازات الحملة وهو الاستيلاء على مدينتي أنطاكية وبيت المقدس اللتان استنزفتا أغلب جهود هذه الحملة، بل أقام له كيان - دون استشارة أو أخذ موافقة قادة الحملة - في منطقة خاضعة لحلفاء الصليبيين وهم البيزنطيين في منطقة الرها في الجزيرة الفراتية.

Abstract:

Suspicion of some modern historians about the sincerity of Baldwin I - the first coronated crusader king of kingdom of Jerusalem - towards the crusader's project astonished me. This critical and analytic study is trying to examine this entangle which is raised by those historians especially before of his coronation in 1100. I have done my best to be objective before I issue my judgment towards this entangle. Balduin I joined the first crusade, but he did not share in the main objectives of this campaign especially it's domination over Antioch and Jerusalem. He involved in establishing his own authority upon the district of Edessa which belonged to Byzantines the allied of the crusaders.

مُتَكَلِّمَةٌ:

تحاول هذه الدراسة أن تبحث جدلية أثارها بعض المؤرخين الغربيين المحدثين، مثل المؤرخ الفرنسي. أولدنبرغ، شككوا فيها في إخلاص بلدوين الأول - أول ملك لمملكة بيت المقدس الصليبية - فهم يرون بلدوين مثال القائد الانتهازي الذي استغل المشروع الصليبي لتحقيق أهدافه الخاصة على حساب هدف المشروع الأهم، وهو تحرير بيت المقدس، كما يزعم الصليبيون، وهو مقر ما يُدعى عندهم بالضريح المقدس للمسيح عليه السلام.

وبذلت جهدي أن أكون موضوعياً في طرح هذا الموضوع، وقد ركزت على الفترة منذ خروج بلدوين في الحملة الصليبية الأولى في 1097م حتى توليته حاكماً لمملكة بيت المقدس في الخامس والعشرين من ديسمبر سنة 1100م وقد استعنت بشكل رئيسي بالمصادر اللاتينية التي أفاضت في تفاصيل الحملة الصليبية الأولى، مثل: وليم الصوري، فوشيه الشارترى، ريمون داجيل، والمؤرخ النورماني المجهول المعروف بصاحب الجستا - كما استعنت بصورة ثانوية بمصادر إسلامية والتي لم تفصل كثيراً فيما يتصل ببدايات الحملة الأولى، وأهمها: ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، والكامل في التاريخ لابن الأثير، كما استعنت بمصادر أخرى تمثل وجهة النظر البيزنطية وهو كتاب الأكسياد لأنثا كومنين ابنة الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين الذي توفي سنة 1118م كما استعنت بمصادر ومراجع عديدة ضمنيتها قائمة المصادر والمراجع، واتبعت منهجاً تحليلياً نقدياً حاولت به أن أتحقق من فرضية مدى إخلاص بلدوين الأول للمشروع الصليبي.

أرجو أن يكون هذا العمل إسهاماً في مجال تاريخ الحروب الصليبية - بعد دعوة البابا إربان الثاني الشهيرة للمشروع الصليبي في مجمع كليرمون في نوفمبر 1095م، تقدم كثير من رجال الإقطاع في أوروبا الغربية للمشاركة في هذا المشروع، ويسرد المؤرخ اللاتيني وليم الصوري قائمة طويلة ممن شاركوا في هذا المشروع، ويذكر ما نصه: كما ذهب أيضاً المحارب الباسل لورد جودفري العظيم دوق اللورين الأدنى، ورحل معه كذلك أخواه اللوردان بلدوين وأستاس وصحبهم كذلك بلدوين الملقب بـ بورج وهو قريب الأخوة الثلاثة - وهذه الإشارة تفيد بأن بلدوين - موضوع بحثنا شقيق الدوق - الذي عُرف في التاريخ بـ بلدوين البويوني - لم يتزعم جيشاً خاصاً به بل انضم إلى قوات أخيه الدوق

جودفري الذي كان يقود أقوى جيش صليبي، حيث انضم إليه عدة كونتات ككونت ريتل وكونت هينولت وكونت ديي وكونت أودنج، وكونت فوريز - بيرش وكونت سنت بول - وسلك جيش جودفري طريق المجر، وقد سبق زحف هذا الجيش وغيره من الجيوش النظامية قوات غير منظمة قادها بطرس الناسك وولتر المفلس، ويهمنما ما يتصل بموضوعنا، أن هذه القوات قد أحدثت دماراً في بلاد المجر، مما جعل ملك المجر كولمان يتخذ إجراءات احترازية مع قوات جودفري، فيذكر وليم الصوري أن الملك كولمان طلب أن يعطوه بلدوين - أخا الدوق - وزوجته وأهل بيته رهائن عنده، فوافق الدوق على ذلك ويبدو أن تحديد وليم لبلدوين لم يكن هو طلب كولمان الشخصي، لكنه طلب رهائن وجاء اختيار بلدوين من قبل جودفري، وعموماً كان هذا في صالح بلدوين الذي ظهر بمظهر المضحى والمقدم حياته وزوجته خدمة للجيش الصليبي حتى يتأمن عبوره لمملكة المجر نحو إتمام المشروع الصليبي وتحقق الهدف وعبر جنود الدوق بسلام، وعاد الرهائن سالمين ولا نرى دوراً متميزاً لبلدوين إلا عندما وصلت قوات الدوق جودفري إلى القسطنطينية، حيث سمح لهم الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين في الإقامة بظاهر المدينة على امتداد شاطئ البسفور، وأرسل الإمبراطور يطلب من جودفري أن يقدم إليه ويقابله شخصياً، فرفض جودفري ذلك وأرسل بعض القادة، ليس منهم بلدوين شقيق الدوق لاستقبال الإمبراطور، فقام الإمبراطور بإرسال جماعة من رماة الأقواس عبروا النهر في قوارب وهاجموا قوات الدوق وأوقعوا بهم إصابات كثيرة وفقاً لرواية وليم الصوري، وهنا يظهر دور بلدوين البويوني حيث قاد كتيبة - بناء على أوامر الدوق - تقدر بخمسمائة فارس، حيث استولى على الجسر الذي يوصل إلى معسكر الدوق والذي عبرت منه قوات البيزنطيين المهاجمة لهم، وأمن معسكر الدوق الذي تمكن من عبور الجسر إلى منطقة مكشوفة خارج المدينة - ويمتدح المؤرخ المجهول صاحب كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس بسالة بلدوين وقواته حيث انتصروا على قوات البيزنطيين وأسروا منهم ستين وقتلوا منهم عدداً لم يحدده المؤرخ المجهول - وعندما هدأت حدة النزاع أرسل الدوق جودفري اثنين من قبله هما: كونون دي مونتاج، وبلدوين دي بورج، وهو أحد أقرباء الدوق ليستلما - حنا بيوفيرجنتس ابن الإمبراطور ليكون في رعاية بلدوين البويوني حتى يتم اللقاء بين جودفري والإمبراطور -

ووفقاً لرواية المؤرخ المجهول صاحب الجستا وكذلك المؤرخة البيزنطية أتا كومنين في كتابها الأكسياد فإن جودفري اصطحب معه أخاه بلدوين وقادة آخرين، وقدموا جميعاً يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي، بينما يخبرنا وليم الصوري أن بلدوين لم يشارك في ذلك اللقاء بل أكل إليه أخوه جودفري قيادة الجيش الصليبي خارج مدينة القسطنطينية. ويبدو أن رواية وليم غير صحيحة وأنه يريد أن يظهر بلدوين بموقف المعاند للإمبراطور البيزنطي والغريب في الأمر أن أتا كومنين تذكر حادثة مفصلة لبلدوين عند لقائه بالإمبراطور فيما يتصل بنهر بلدوين لأحد الصليبيين الذي أصر على الجلوس في كرسي ملك الإمبراطور دون السماح له - وواضح أن هذه الحادثة صارت مشهورة ولكن المصادر اللاتينية جميعها لم تذكرها وربما تعمدت السكوت عنها - ولا يستبعد أن يكون بلدوين أراد أن يشبه بلدوين بتانكريد الذي رفض تقديم يمين الولاء وهرب متخفياً من القسطنطينية، إلا أنه سيجبر على ذلك بعد تسلم البيزنطيين لمدينة نيقية من المدافعين عنها من الأتراك في العشرين من يونيو 1097م.

ولا نخبرنا المصادر اللاتينية عن أي جهد لبلدوين البويوني خلال حصار الصليبيين لنيقية الذي امتد خمسة أسابيع ولا عن دور مميز له في معركة صوريليوم الشهيرة التي وقعت في الأول من يوليو 1097م، وقد فصل المؤرخ وليم الصوري في ذكر هذين الحديثن اللذين أخذنا منه نحو خمس وعشرين صفحة ولم يذكر حتى اسم بلدوين، بل نرى وليم يمتدح كثيراً من القادة ودورهم في هذين الحديثن المهمين، حتى إنه ينتهي على بعض القادة الصغار الذين لم يقودوا جيوشاً منفردين بل جاؤوا مع قادة كبار، فنراه يمتدح بسالة وتضحية تانكريد ابن أخت بوهيموند أمير تارنتو فيقول - بل إن تانكريد ذاته - الذي لم يكثرث بالحياة ولا يعبأ بمكانته السامية - كاد أن يكون هو نفسه من الهالكين، وكان الموت منه قاب قوسين أو أدنى، إذ طوح بنفسه في معمة القتال، صاباً على العدو الدمار، ولكنه نجا بفضل ما بذله بوهيموند من جهد - وقد لقي وليم شقيق تانكريد حتفه في هذه المعركة.

وإذا علمنا أن جيش جودفري - الذي جاء معه أخوه بلدوين - هو أعظم جيش من حيث العدد فتقدره أتا كومنين بعشرة آلاف فارس وسبعين ألفاً من المشاة، بينما جيش بوهيموند - الذي جاء معه تانكريد - ربما لا يزيد عن أربعة آلاف فارس وعدة آلاف من المشاة، نرى أن قوات جودفري لم يكن لها دوراً كبيراً خاصة في معركة صوريليوم.

والجدير بالذكر أن قوات بوهيموند النورماندية خسرت وحدها ألفين من خيرة فرسانها ومشاتها في تلك المعركة، كما يخبرنا وليم الصوري - وقد أخبرنا وليم الصوري أن مجموع القوات الصليبية التي اشتركت في معركة ضوريليوم كانت خمسين ألفاً وكان منهم أربعون ألف فارس جاءت منجدة من قوات الدوق جودفري - هيو الصغير وبلدوين صاحب أستاس وغيرهم من القادة، وهذا يعني أن قوات بوهيموند جميعها التي شاركت في الحملة الأولى لا تزيد عن عشرة آلاف فارس ورجال ويبدو أن تقدير أتا كومنين لقوات جودفري ومن تبعته من القوات الفرنسية الشمالية وكذلك الألمانية هو تقدير صحيح وعموماً لا تذكر المصادر أية إشارة عن بلدوين البويوني في هذين الحدثين الشهيرين، بل سنرى بلدوين ينفرد عن الجيش الصليبي بعد قليل للتفرغ لأهدافه الخاصة دون أخذ إذن من قادة الجيش الصليبي.

ويُحمل فوشيه الشارترتي بصورة غير مباشرة جودفري وأتباعه مسؤولية الانفصال عن الجيش الرئيسي حيث انفصلت قوات الدوق جودفري والكونت ريمون وهيو الصغير عن القوات الرئيسية لمسافة يومين، بينما يحمل وليم الصوري قوات بوهيموند - روبر كونت نورماندي - ستيفن كونت بلوا - تانكريد روبر كونت فلاندرز - وهيج كونت سنت بول المسؤولية ويبدو واضحاً أن رواية فوشيه هي الأصح لأن المصادر تؤكد أن الهجوم السلجوقي جاء على قوات جودفري ورفاقه أولاً، ثم أقبلت القوات الأخرى لنجدتهم وعموماً يهمننا من هذا الموضوع أن القادة الصليبيين قرروا بالإجماع - كما يخبرنا وليم الصوري بعد معركة ضوريليوم - أن تتضمن الكتائب بعضها إلى جانب بعض وتتوحد، وأن تسير مترافقة كالجسد الواحد حتى يتقاسموا جميعاً إقبال الحظ إذ يقبل، وإدباره إذ يدبر.

ولكن بعد نحو أربعة عشر يوماً من تعهد القادة الصليبيين بعدم الانفصال عن بعضهم، نرى أن بلدوين البويوني كان أول من انفصل مع قوات كونت ستيفاي وقريبه بلدوين دي بورج وجلبرت دي مونت كلير، حيث قاد قوات يقدرها وليم الصوري بسبعمئة فارس وجماعة من المشاة، بينما يذكر المؤرخ المجهول أن تانكريد كان أول من انفصل عن القوات الرئيسية ثم تبعه بلدوين البويوني، أما فوشيه الشارترتي فيخبرنا أنه شخصياً التحق منذ ذلك الحين بقوات بلدوين البويوني ولا يذكر انفصال تانكريد، حيث صار آنذاك قسيساً خاصاً لبلدوين البويوني، حتى إنه لا يذكر

الصراع الشهير الذي وقع بين بلدوين البويوني وتانكريد على طرسوس، وكذلك على المصيصة الذي يستغرق عند وليم الصوري نحو عشر صفحات.

وهنا نذكر مختصر ما حدث من صراع بين بلدوين البويوني وتانكريد، فقد قاد تانكريد عدة مئات من قواته وحاصر مدينة طرسوس في إقليم قليقية، فاضطر أهلها الأرمن أن يقبلوا رفع راية تانكريد حتى يقدم خاله بوهيموند ليستلم المدينة رسمياً وظلت قوات تانكريد خارج المدينة أثناء هذه الفترة، ثم جاء بلدوين بقواته والتقى بتانكريد، حيث رحب به، ولكن ما إن جاء الصباح حتى رأى بلدوين ورفاقه راية تانكريد تخفق على أعلى برج بالمدينة، فنهشتهم الغيرة في الحال، ونسوا أوامر الحب والأخوة التي عقدها فيما بينهم أثناء زحفهم في سلام، وهي الأوامر التي صمموا على أن تظل ثابتة، ولكن الذي جرى عكس ذلك، إذ غضب رجال بلدوين من جرأة تانكريد على رفع رايته فوق المدينة، في الوقت الذي يوجد فيه كثيرون غيره من الأمراء الحاضرين، وهم أكثر منه جنداً وعسكراً — هذا الوصف لمشاعر بلدوين وجنوده من المؤرخ وليم الصوري، والتي نقلتها بالنص، توضح مدى غطرسة بلدوين، الذي يبدو أنه كان يريد من القادة الصليبيين أن يقاتلوا ويقدموا التضحيات ثم يرفعوا رايته أو راية أخيه جودفري وكأنه هو القائد العام للقوات الصليبية، والجدير بالذكر أنه لم يكن هناك قائداً عاماً للقوات الصليبية، كما أن انفصال قوات بلدوين وكذلك تانكريد هي مخالفة لتعهد جميع القادة بعدم الانفصال والانفراد بأعمال عسكرية خاصة بهم دون أخذ موافقة — ويهمننا في هذا الموضوع هو إجماع المصادر اللاتينية على إدانة تصرفات بلدوين التي أثارت حفيظة تانكريد وجنوده الذين تركوا طرسوس لبلدوين، كما دان هؤلاء تطاول بلدوين على تانكريد بكلمات سفيهة كما يسميها وليم الصوري — ولا يهمننا تفاصيل الخلاف، ولكن يهمننا ما يتصل بموضوعنا وهو أن تصرفات بلدوين مع تانكريد تجاوزت حدود المعقول، فقد اضطر تانكريد مع قواته إلى مغادرة طرسوس التي دخلتها قوات بلدوين في الجزء الذي يقيم فيه الأرمن الذين خضعوا له خوفاً من بطشه وقواته التي كانت أكثر من قوات تانكريد، وفي الليلة الثانية من استيلائه على طرسوس قدمت قوات تابعة لبوهيموند للالتحاق بقوات تانكريد التي ظنوا أنها استولت على المدينة، ولكنهم تفاجؤوا ببلدوين وقواته التي لم تسمح لهم بدخولها، ولا حتى تقديم الضيافة لهم بالطعام الضروري، حتى إن أهالي المدينة من الأرمن قدموا لهؤلاء الطعام خلسة دون علم بلدوين بواسطة حبال أدلوها على أسوار المدينة، وعموماً نام هؤلاء الجند عند سور المدينة دون أخذ

الحيطة، وحدث أن هرب الأتراك المدافعون عن المدينة بأموالهم ونسائهم خلصة ثم عادوا وقتلوا هؤلاء النيام دون أن يُحدثوا ضجة، وعندما أشرق الصباح، صُدِم الأرمن والصليبيون بهروب الأتراك وأكثر منه بذبح قوات بوهموند بهذه السهولة، وغضب جنود بلدوين عليه غضباً شديداً بل وصل الأمر بهم أن حملوا سلاحهم ضده - وضد قادته، الذين أصابهم الخوف ففروا نحو الأبراج العالية ليحتموا بها من ثورة غضب جنوده الذين لم تهدأ ثائرتهم إلا بعد اعتذار بلدوين الصريح وتبرير تصرفه ذلك، فيذكر وليم الصوري ما يلي: «وراح بلدوين يبرئ ساحته عندهم، مقسماً لهم بأن السبب الوحيد الذي حمله على إغلاق أبواب المدينة في وجه الحجاج هو أنه قد وعد وعداً لا حنث فيه ألا يسمح لأحد بدخولها حتى يصل الدوق» أي أخيه جودفري، ويصف وليم هذا التبرير بأنه «كلمات مرائية وألفاظ استعطاف، ولكنها هذات من ثائرة جنده الغاضبين».

ويذكر المؤرخ الصليبي المجهول صاحب «الجستا» حادثة غريبة، حيث ينسب إلى بلدوين أنه عرض على تانكريد أن يقوموا معاً بمهاجمة طرسوس في وقت واحد، ومن يحصل على النصيب الأكبر في احتلالها وسلبها تصير له المدينة، وينسب المؤرخ المجهول استغراب تانكريد لهذا السلوك الغريب خاصة أن سكان طرسوس كانوا من النصارى - وبعد أن غادر تانكريد بقواته حانقاً على بلدوين، مر على الساحل على بعد ثلاثة أميال من طرسوس فوجد قوات صليبية قادمة من فلاندرز وفيريزيا وهولندا، واستطاع إقناعهم بالانضمام إلى قواته، ثم توجه تانكريد إلى مدينة المصيصة واحتلها بالقوة، ثم أقبل بلدوين البويوني مرة أخرى يتحرش بتانكريد، وهنا ثارت ثائرة تانكريد وتأججت نيران سخطه على بلدوين، كما يصفها وليم الصوري، فقام تانكريد على رأس خمسمائة فارس وهاجموا بعنف قوات بلدوين، ويصف وليم الصوري استبسال كلا الفريقين فيقول: «استبسل فيها كلا الجانبين استبسالاً ضارياً كما لو كان كل واحد منهم يحارب خصماً لدوداً، وعموماً رجحت كفة بلدوين نظراً لكثرة قواته، ثم تصافى الفريقان وأطلقا سراح الأسرى، وكان لجهود الوساطة دور كبير في تهدئة الطرفين، ولم يجرأ بلدوين - بعد ذلك - على دخول المصيصة أو التحرش بتانكريد».

ويبدو أن بلدوين قد سمع بحادث الدب الذي هاجم أخاه جودفري في بيسيديا، ولكنه لم يهتم بزيارته للاطمئنان عليه، وعموماً وجدها فرصة له الآن لزيارة أخيه والاطمئنان على صحته، وكذلك فرصة ليقوم بتأليب عليه

تانكريد لينتقم منه ويُشفى غليله، حتى إن وليم الصوري يوضح صراحة أن حسد بلدوين لتانكريد كان أهم عامل لزيارة أخيه حتى يثيره عليه، فيقول: «وإذ عزم بلدوين على زيارة أخيه جودفري لما وجده قد تماثل للشفاء، فقد ثارت في نفس بلدوين نيران الغيرة من تانكريد مرة أخرى، وأحفظه أن يجمع الكل على امتداح بسالته التي طبق خبرها الآفاق، وقد دعا بلدوين أصدقاءه وأفضى إليهم عزمه على معاودة القيام بمخاطر جديدة، وسألهم أن يكونوا عوناً له في تحقيق هذا الهدف، ولكنهم كرهوا أن يصاحبوه لما سمعوا عن وقاحته المتناهية حيال تانكريد أثناء وجودهما أمام أسوار طرسوس في قليقية، اعتماداً منه على كثرة أتباعه ، ولذلك لم يصحبه لزيارة أخيه جودفري عند مرعش في الثالث عشر من أكتوبر 1097م إلا قلة من أصحابه، حيث زار أخاه جودفري، فعنفه أخوه على سلوكه تجاه تانكريد، ولم يجد بلدوين من يقف إلى جانبه كما خاف من انتقام بوهيموند، فاضطر لتقديم الاعتذار لتانكريد، ويصف وليم الصوري ذلك فيقول: «ولما أدرك بلدوين شناعة ما اقترف من جرم، فقد أعلن - بكل مذلة - أنه مستعد لأن يقدم لتانكريد النبيل الاعتذار الواجب عما اقترفه من إساءة في حقه ، ويعقب وليم الصوري على تحسن سلوك بلدوين فيما بعد، فيقول: «والحق أنه كان رجلاً موضع الإطراء من كل الوجوه، كما أنه لم يؤخذ عليه قط بعدئذ شناعة تترى به كهذه الشناعة».

ونحن من جانبنا سنأتي من كلام وليم الصوري وغيره ما يدل على أن سلوك بلدوين وطبعه لم يتغير كثيراً حتى بعد أن صار ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية منذ عام 1101م.

صار بلدوين بقواته - التي تقدر بمائتي فارس وعدة مئات من المشاة - يمثل قوة تُهاب خاصة بعد تحالفه مع «باكراد الأرمني، ووفقاً لرواية وليم الصوري صار بلدوين حديث الناس في الرُّها التي يحكمها ثوروس الأرمني نائباً عن الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين - وهنا يسرد لنا تفاصيل يحاول بها تبرير كيفية وصول بلدوين إلى الرُّها، وكيفية قيام ثورة ضد ثوروس - وكيف صار بلدوين فجأة حاكماً على مدينة الرُّها الأرمنية، بل أعلن قيام أول كونتية صليبية في الشرق، وهي أول مخالفة صريحة لاتفاقية القسطنطينية التي أوجبت على قادة الصليبيين تسليم أي بلد يحتلونه من المسلمين لقوات الإمبراطور لكون هؤلاء القادة تابعين إقطاعياً للإمبراطور

البيزنطي، وبهذا قامت أول إمارة صليبية على أراض تعترف إقطاعياً بسيادة الإمبراطورية البيزنطية.

والجدير بالذكر أن القادة الصليبيين سيزعمون أن الإمبراطور البيزنطي قد خذلهم ولم يساعدهم في الاستيلاء على مدينة أنطاكية التي امتد حصارها سبعة أشهر منذ الثامن عشر من أكتوبر 1097م حتى الثالث من يونيو 1098م إلا أن إعلان قيام كونتية الرها كان في شهر مارس 1098م أي قبل الاستيلاء على أنطاكية من قبل الصليبيين بأربعة أشهر - ولا تهمنا تفاصيل المؤامرة التي حيكت ضد ثوروس الأرمني، ولكن نستغرب بشدة من سكوت المصادر اللاتينية عن تفاصيل هذه المؤامرة، حتى إن فوشيه الشارترى - وهو قسيس بلدوين الذي صحبه منذ الخامس عشر من يوليو 1097م - لم يذكر المؤامرة إلا في نحو ثماني أسطر، وهو يعرض الموضوع وكأن بلدوين بريء من المؤامرة أو أنه أجبر على قبول تولي حكم مدينة الرها من قبل سكانها الأرمن أما صاحب "الجستا" وريمون داجيل فلا يذكران أية معلومة عن هذا الموضوع والطريف في الأمر أن وليم الصوري يذكر تفاصيل هذا الموضوع في حوالي ثمانية صفحات كرسها لإظهار بلدوين بصورة البطل الذي طبقت شهرته الآفاق، فيشتاق سكان الرها وحتى حاكمها ثوروس لطلب دعم هذا البطل المنقذ لهم من تهديد الأتراك، فيقدم بلدوين بقواته القليلة بحفاوة غير مسبوقة، حيث يقول: "حينذاك تابع سيره - أي بلدوين - المتقطع إلى مدينة الرها حيث استقبله حاكمها بالتعظيم عند وصوله إليها، وشاركه الترحيب به جميع من فيها، كما خف لاستقباله رجال الدين والناس عامة، ثم يذكر وليم أن ثوروس تبني بلدوين وشاركه في حكم الرها، وذلك لأنه - أي ثوروس - كان عاجزاً عن حماية رعيته من الضرر الذي ينزل بهم، أو دفع الشر عنهم أو تخفيف ما يلقونه من الضيق، كما يزعم وليم الصوري، إن ثوروس سرعان ما سينقلب على بلدوين نظراً لغيرته منه، ويذكر وليم أنه: "سرعان ما شعر بغصة الغيرة تنهش قلبه منه، فراح يستعرض فيما بينه وبين نفسه، وما أظهره الناس من الحفاوة والترحيب بهذا القائد - أي بلدوين - عند وصوله، وتمنى لو نقض ما أبرمه معه من اتفاق كان يتضمن مناصفته طول حياته كل ما تملكه المدينة من بضائع وضرائب وجميع دخلها من الأتاوات، ثم يؤول كل شيء، بعد ذلك إلى بلدوين، وفي تلك الأثناء يعرض ثوروس على بلدوين أن يلغي الاتفاق ويعوضه مالياً، فيرفض بلدوين العرض ويبرر ذلك بأنه إذا قبل المال فإنه سينزل إلى منزلة الجندي المرتزق، ويعلن أنه سيرحل عن الرها، فيبادر

أهلها إلى ثوروس ويجبروه على الوفاء بالاتفاق، فيُضطر ثوروس للرضوخ إلى مطالبهم ويتبنى بلدوين ويشاركه حكم الرها ومناصفة كل شيء في حياته، وإذا مات ثوروس فسيؤول حكم الرها إلى بلدوين ويبدو أن وليم الصوري ناقض نفسه، فهو يزعم أن موضوع التبني ومناصفة الرها تم قبل هذه الحادثة، وعموماً كان ذلك تمهيداً من وليم لتبرئة بلدوين من ثورة محتملة يقودها أهالي الرها الأرمن ضد سيدهم ثوروس حيث سينصبوا بواسطتها بلدوين - البطل المغوار - حاكماً عليهم، وفي تلك الأثناء قام الأرمن بمحاصرة البرج الذي يقيم فيه ثوروس الذي يقوم - كما يذكر وليم نفسه - باستدعاء بلدوين إليه، ونثر أمامه كل الأموال، وتوسل إليه أن يكون واسطة له عند الناس، ويبدو أن وليم كان يعرف شخصية بلدوين جيداً، فهو لا تنثيره وتؤجج مشاعره سوى رؤية الأموال وعموماً يزعم وليم أن بلدوين سعى سعياً صادقاً إلى حماية الحاكم وصرف كل أذى ينزل به على أيدي المواطنين، وبالرغم مما بذله من قصارى جهده ليشيخهم عما اعتزموه، إلا أنه سرعان ما تبين له فشل محاولاته وذهابها أدراج الرياح، لأن غضبهم على واليهم كان يزداد عنفاً وحدة شيئاً بعد شيء - ولا يذكر وليم جهود بلدوين العملية لإنقاذ ثوروس سوى أن ثوروس أخذ حبلاً ونزل بواسطته من البرج ليفر، حيث قتلته سهام الثوار، ويبدو أن الذي وفر هذا الحبل هو بلدوين صاحب المروءة والشهامة والقلب الرحيم الذي تسبب في قتل ثلاثمائة جندي من أتباع بوهموند ذبحوا قبل أشهر بدم بارد عند أسوار طرسوس - كما أسلفنا - من قبل الأتراك ثم في اليوم التالي نصب هؤلاء الثوار بلدوين حاكماً على الرها بالرغم من تظاهره بالمعارضة الشديدة، كما يزعم وليم الصوري - وإذا أخبرنا وليم أن الأرمن كانوا ينقلون أخبار تحرك الصليبيين للمسلمين أثناء حصارهم لأنطاكية - من الثامن عشر من أكتوبر 1097م حتى الثالث من يونيو 1098م - فهذا أمر لا يُستبعد، وذلك نكايّة في تأمر بلدوين ضد حاكمهم الأرمني ثوروس.

وفرض الجيش الصليبي الحصار على أنطاكية منذ الثامن عشر من أكتوبر 1097م حتى الثالث من يونيو 1098م، وامتد الحصار أكثر من سبعة أشهر شارك فيه جميع القادة عدا بلدوين البويوني الذي كان مشغولاً في توطيد نفوذه في الجزيرة الفراتية بإقامة إمارة له في الرها وما حولها من أراض خاضعة للإمبراطورية البيزنطية - ويصف وليم الصوري كرم بلدوين بالعطايا السخية من الذهب والفضة والأقمشة الحريرية والجياد الصافنات، وغير ذلك من كل غال وثمين بلسماً داوى حاجة كل زعيم، ولم يقتصر كرمه

على كبارهم فحسب بل تعداهم إلى الكثير من عامة الناس، مما أكسبه ميل الجميع وحبهم إياه، وزيادة على ذلك فإن سخاءه لم يقل عن هذا تجاه مولاه وأخيه الأكبر، فأمر بأن تحول إلى جودفري جميع ما تغله أملاكه الخاصة الواقعة على ذلك الجانب من نهر الفرات حول تل باشر والإقليم المجاور له، فأمدّه بالحبوب والشعير والزيت والنبيد، إلى جانب خمسين ألف قطعة ذهبية وصله بها وكان الأولى بوليم السوري أن يوضح أن هذه الأموال هي ما نهبه بلدوين من ثوروس الأرمني الذي تأمر عليه بلدوين.

وباستحياء ينتقد وليم السوري تخلف بلدوين عن حصار أنطاكية، فيقول: "ولم يكن ينقصهم سوى بلدوين الذي كان سلطانه فيما حول الرها يزداد بمشيئة الرب قوة يوماً بعد يوم ويبدو أن بلدوين كان - في نظر وليم السوري - القائد الرباني الذي ينفاد وفق مشيئة الرب، بينما غيره -ربما- اختلطت عليه مشيئة الرب بالأغراض الشخصية- ويستدرك وليم السوري، فيقول: "وإذ ذاك نودي في الجميع ألا ينفصل أحد ما عن الجيش الرئيسي إلا بأمر يصدر إليه - ويبدو أن بلدوين جاءه أمر إلهي بالانفصال عن الجيش دون أخذ الإذن من قادة الجيش، ولذلك فهو أعلى من المساءلة والعتاب، والغريب في الأمر أن بلدوين زار أخاه جودفري عند مرعش قبل نحو خمسة أيام فقط من فرض الصليبيين الحصار على أنطاكية، كما تظهر الروايات اللاتينية- ويبدو أنه تسلل مع مرافقيه وقواته من الجيش الرئيسي نحو طرسوس دون إعلام أحد بذلك، خوفاً من إجباره على الانضمام للجيش الرئيسي.

وعموماً يبدو أن الرواية الوحيدة التي تتحدث عن كيفية انفراد بلدوين في حكم الرها وهي رواية وليم السوري غير واضحة التفاصيل والترتيب الزمني ولكن يظهر أن بلدوين توجه أولاً إلى طرسوس وليس إلى الرها، فقد أخبرنا فوشيه المؤرخ أنه شخصياً التحق بقواته شمالاً، ولكن فوشيه وكذلك وليم السوري يوهمان القارئ أن بلدوين اتجه نحو مناطق قرب الرها ثم بسط سلطته عليها بسهولة، ويذكر فوشيه استسلام تل باشر لبلدوين دون قتال، ويبدو أن توجه بلدوين لهذه المناطق لم يستغرق وقتاً طويلاً، فمن رواية وليم السوري نرى أن تحركات بلدوين استغرقت عدة أسابيع، بينما نعلم من فوشيه الشارترى أن وصول بلدوين للرها كان أواخر شهر فبراير سنة 1098م، وأن وصول بلدوين وتدبيره المؤامرة سابقة الذكر لم يستغرق سوى خمسة عشر يوماً، وفقاً لرواية فوشيه الشارترى، وهنا يبدو أن بلدوين

ربما اتجه أولاً لطرسوس وقضى فيها أكثر من ثلاثة أشهر ثم سار إلى منطقة الرها، وهذا ما أرجحه من سياق الروايات اللاتينية الغامضة عن خط سير بلدوين، وهذه الفرضية - إن صحت - تؤكد تكاسل بلدوين وتفضيله الغنيمة السهلة.

والطريف في الأمر أن منافس بلدوين، وهو تانكريد، شارك في حصار أنطاكية منذ البداية وحتى النهاية وكانت له مواقف مشرفة وبطولية يحسده عليها كل قائد صليبي، وبالرغم من عدم تخلي تانكريد عن إخضاع أجزاء من إقليم قليقية إلا أنه فيما يبدو آخر مشروعه لإخضاع قليقية حتى ينتهي حصار أنطاكية التي لها أهمية خاصة لدى الصليبيين نظراً لمكانتها الكبيرة عند النصاري لكونها تعتبر أول مدينة عُرف أتباع النصرانية فيها بالمسيحيين، كما أن بها كنيسة تُنسب لزعيم حوارى المسيح عليه السلام وهو بطرس.

وعموماً لا يهمننا ذكر تفاصيل حصار أنطاكية، ولكن يهمننا أن الصليبيين عانوا في هذا الحصار من مشاكل وصعاب كثيرة، وأهمها توفير الطعام لهم ولجيادهم ومواشيهم مما أدى إلى وقوع مجاعة خطيرة، بل وقع طاعون قتل نحو نصف جيشهم الذي يزيد عن مائة وستين ألفاً، بل إن ريمون داجيل يقدر من مات وقتل في حصار أنطاكية بمائتي ألف، وقد بدأت هذه المصاعب - خاصة - منذ شهر مارس 1098م وحتى نهاية الحصار، حتى إن وليم الصوري يزعم أن خيول الصليبيين - البالغ عددها سبعون ألفاً - لم يبق منها سوى ألفين، وإن كان يبالغ في ذلك، فهو يناقض نفسه، حتى إنه يذكر أن الصليبيين سيرسلون عشرين ألف فارس في شهر ديسمبر 1097م بقيادة بوهموند وروبر كونت فلاندرز للقيام بعمليات سلب في مناطق بعيدة عن أنطاكية لإحضار الطعام لهم ولمواشيهم وخيولهم وعموماً يهمننا ما يتصل بموضوعنا من أن بلدوين البويوني لم يشغله كثيراً أمر الصليبيين، فلم يرسل لهم شيئاً ولكن عندما حضر بعضهم إليه بسبب هذه الصعاب الكثيرة أظهر لهم كرمه الكبير، وكان الأولى بوليم الصوري - الذي يمتدح كرم بلدوين - أن يعاتبه على انشغاله عن المشاركة في حصار أنطاكية شخصياً، كما نسي وليم أن الأموال التي أنفقها بلدوين على هؤلاء الصليبيين هي أموال اغتصبها من - أمير الرها ثوروس الأرمني الذي تأمر عليه، كما سيصادر بلدوين لاحقاً بعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية بنحو شهر - أموال وجهاء الرها من الأرمن الذين اغتصب أموالهم بغير حق، وسأذكرها بعد قليل.

وقدتمت في الرابع من مايو سنة 1098م نجدة إسلامية كبيرة يقودها كربوقا - حاكم الموصل - لنجدة أنطاكية، ولكنها توجهت أولاً نحو الرها وحاصرتها ثلاثة أسابيع ولم تغلح في احتلالها فغادرتها باتجاه أنطاكية - والطريف في الأمر أن وليم الصوري يؤكد أن توقف جيش الأعداء أمام الرها، هو السبب في عدم استطاعة بلدوين الحضور أثناء حصار أنطاكية، كما كان السبب في خلاص قوما الذين كان لا بد من أن يتخرج موقفهم لو كان كربوقا زحف مباشرة إلى أنطاكية وأخذها قبل استيلاء الصليبيين عليها - ولكن شاءت نعمة الرب أن تقع أنطاكية قبل وصول المارقين، وإلا كان من الصعب على الصليبيين أن يقفوا في طريق كربوقا - والأطرف من ذلك أن فوشيه الشار تري الذي كان مصاحباً لبلدوين في الرها يذكر هذه الحادثة المهمة فقط في سطرين ونصف إن الغموض الذي يحيط هذه الحادثة يشي بأن الرها لم تتعرض لحصار محكم بل ربما توقفت القوات المسلمة أمامها كاستعراض للقوة ولتخيف الصليبيين المحاصرين لأنطاكية، وعندما وصلت أخبار هذه الحملة الكبيرة للصليبيين المحاصرين لأنطاكية استبد بهم الذعر استبداداً كبيراً، على حد قول وليم الصوري.

وفي الثالث من يونيو 1098م - بعد حصار امتد سبعة أشهر - تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة أنطاكية بمؤامرة حيث استعانوا ببعض الخونة الذين سهلوا لهم دخول المدينة من الجنوب ثم وصلت قوات كربوقا المسلمة - الذي سبق الحديث عنها - فحاصرت الصليبيين في أنطاكية لمدة ستة وعشرين يوماً - وعانى الصليبيون شدة كبيرة حيث عدمو الطعام حتى إنهم اختاروا أن يقاتلوا حتى لا يموتوا جوعاً مع حصولهم على المهانة والذلة، فخرجوا من المدينة في صفوف قتال وانتصروا على القوات المسلمة التي لم تصمد طويلاً ولا يهمننا هنا تفاصيل الأحداث، ولكن يهمننا ما يتصل ببلدوين البويوني الذي لم يحرك ساكناً لنصرة إخوانه الصليبيين طوال تلك الشدائد.

وضرب الصليبيين وباء الطاعون بعد استيلائهم على أنطاكية ومات كثير منهم، خاصة من النساء، حتى إن المندوب البابوي أديمار أسقف بوي مات في هذا الوباء - وقرر قادة الصليبيين تأجيل الزحف نحو بيت المقدس، إلى شهر أكتوبر، وقام كثير من أشراف الصليبيين وعامتهم بعبور نهر الفرات قاصدين الرها حيث أحسن بلدوين كونتها استقبلهم ومنحهم الأعطيات ثم أعادهم إلى الجيش الرئيسي وحدث في تلك الأثناء أن طلب صاحب قلعة

· أعزاز العون من جودفري ضد سيده الملك رضوان بن تنتش صاحب حلب، وذلك مقابل أن يصير صاحب أعزاز أحد أتباع جودفري - فأرسل جودفري إلى أخيه بلدوين البويوني لمساعدته في هذه المهمة، فقام بلدوين يقود ثلاثة آلاف مقاتل لمساعدة قوات جودفري، وعندما التقى بلدوين بأخيه نصحه أن يطلب مساعدة القادة الصليبيين المقيمين بأنطاكية لإتمام هذه المهمة، فطلب جودفري مساعدة بوهيموند صاحب تارنتو وريمون كونت تولوز فأنجدها بعد تردد، فأتوا جميعاً هذه المهمة، وهنا نتساءل لماذا لم يقيم بلدوين بمساعدة الصليبيين عندما كانوا يعانون من حصار أنطاكية الذي سبق ذكره وهو يملك هذه القوة الكبيرة التي يقدرها ولهم السوري بثلاثة آلاف مقاتل، كما يحق لنا أن نتساءل لماذا لم يقيم بلدوين بهذه القوات وقوات أخيه لإتمام هذه المهمة في مواجهة الملك رضوان الذي يبدو أن إمكاناته دون إمكاناتهما - ويبدو أن بلدوين تعود أن لا يجازف ويغامر بقواته من أجل الآخرين حتى لو كان أخيه، فهو غير مستعد ليقدم تضحيات في مهمة تعود الفائدة فيها لغيره.

بعد أن عاد جودفري بقواته إلى أنطاكية اشتد الوباء بها، ووفقاً لرواية وليم السوري فإن بلدوين قد ألح على أخيه خلال اشتراكهما في الحملة الأخيرة أن يقيم عنده في الرها ليتجنب قيظ الصيف، ولذلك اصطحب جودفري معه في سفرته هذه بطانته الخاصة وطائفة كثيفة من فقراء الناس الذين كان يرى لزماً عليه إعالتهم.

ووفقاً لرواية وليم السوري فإن جودفري قد استقر في ناحية تل باشر وراوندال، ويبدو أن بلدوين منح أخاه جودفري هذه الحصون كإقطاع، إلا أنه لم يعجبه ذلك فلم يبق عند أخيه بلدوين وعموماً استفاد بلدوين من جزء من قوات جودفري التي قدمت معه للرها فجند بعضها وطرده الأرمن من قواته لشكه في إخلاصهم وولائهم له.

وواضح جداً من رواية وليم السوري، أن بلدوين كان يسعى لهذا الهدف، ولذلك أثار هذا الأمر نبلاء الأرمن الذين تعاونوا من قبل مع بلدوين ضد سيدهم السابق ثوروس الأرمني - ولا نستغرب من زعم وليم السوري أن هؤلاء الأرمن قد دبروا مؤامرة - مع بعض قادة الأتراك - ضد سيدهم بلدوين وطبيعي جداً أن تكتشف المؤامرة قبل وقوعها خاصة أن وليم السوري نصب نفسه مدافعاً عن بلدوين خاصة فيما يتصل بعلاقته مع الأرمن، وبكل سهولة يفتضح أمر المتآمرين ويعترفون بسرعة كما يزعم وليم السوري، فيقوم بلدوين بسمل عيون زعماء المؤامرة، أما الآخرين

فقسمهم إلى قسمين، قسم نفاهم وصادر أموالهم، والقسم الآخر - ربما من دونهم جرماً - سمح لهم بالإقامة في الرها مع إلزامهم بدفع غرامة مالية كبيرة. وبهذه الإجراءات التعسفية الجديدة تمكن بلدوين من الحصول على أموال وجهاء الرها الأرمن ويقدرها وليم الصوري بعشرين ألف قطعة ذهبية تضاف إلى ما صادره من أموال ثوروس الأرمني، وسيستغل هذه الأموال ليجند فقراء الصليبيين في قواته التي قدمت مع أخيه، وسيتمكن بهذه القوات من السيطرة على القلاع المجاورة للرها، وخاف كثير من أرمن الرها منه حتى حموه - والد زوجته - فرّ من الرها خوفاً من أن يطالبه بلدوين ببقية مهر ابنته التي تزوجها - ويزعم وليم الصوري أن حموه لم يف له بالعهد فيما يتصل بالمهر - ويبدو أن طبع الغدر عند بلدوين قد ترسخ، فهو اليوم ربما كان يدبر الغدر بحميه كما غدر من قبل بثوروس وزعماء الرها.

ونحن نستغرب من فوشيه الشار تري الذي لم يذكر شيئاً عن موضوع صاحب بزاعة ولا عن قدوم جودفري للرها ولا عن مؤامرة بلدوين ضد زعماء أرمن الرها ولا عن تجنيده للصليبيين وتخليه عن الأرمن وهذا أمر يدعو للغرابة أن يسكت مستشار بلدوين الديني عن هذه الحوادث التي تظهر بلدوين بصورة سيئة، وهكذا يضرب بـ بلدوين المثل بنكران الجميل وعدم الوفاء لحلفائه، فقد تعاون بالأمس مع هؤلاء القادة الأرمن ليتخلصوا من أمير الرها ثوروس الأرمني، واليوم يتعاون مع الصليبيين ليخلصوه من حلفاء الأمس ويجازيهم - أي الأرمن - جزاء سنمار، كما لا ننسى أن بلدوين حرص على مصادرته ما تبقى من مال للأرمن، وخاصة قادتهم، فلم يبق لهم شيئاً بعد اتهامه لهم بالتآمر ضده، وهنا يستوقفنا ذكر وليم الصوري للمبلغ المصادر بالتحديد وهو عشرون ألف قطعة ذهبية وكأنه يقول: إنه مبلغ يستحق أن يخون بلدوين بسببه حلفاء الأرمن ويستبدلهم بالصليبيين.

وبينما كان الصليبيون مشغولون بهدفهم الرئيسي وهو الاستيلاء على بيت المقدس كان بلدوين مشغولاً في توطيد حكمه في كونتيته، فحاول آنذاك ضم مدينة سروج له، حيث تحالف صاحبها باللاس التركي مع بلدوين وأعلن نفسه تابعاً له، فلم يقبل منه بلدوين إلا أن يسلم مدينته، ووفقاً لرواية وليم الصوري أن باللاس تأمر لقتل بلدوين ولكنه فشل، فانحل هذا التحالف، كما أعلن بالادوك صاحب مدينة سميساط ولاءه لبلدوين، ولكن بلدوين اشترط عليه تسليم مدينته، فماتل في تسليمها، فقام بلدوين بالتآمر عليه وقتله واستلم هذه المدينة.

واشترك جميع القادة الصليبيون في الاستيلاء على بيت المقدس فيما عدا بوهيموند وبلدوين ويبدو أن بوهيموند كان عازماً على ذلك ولكنه لم يكمل عمله خاصة بعد نزاعه مع ريمون كونت تولوز حول ملكية مدينة معرة النعمان التي قاما بالاستيلاء عليها في نوفمبر 1098م وذبخوا أهلها - فلم يقبل بوهيموند باقتراح ريمون تسليم المدينة لأسقف البارة إلا إذا سلمه ريمون الأبراج التي لا زالت تحت سلطته في مدينة أنطاكية - فلم يقبل ريمون ذلك فعاد بوهيموند إلى أنطاكية وأخرج قوات ريمون منها بالقوة، ولم يقم بوهيموند بالمشاركة في الاستيلاء على بيت المقدس وهو الهدف الأول للحملة الصليبية الأولى - أما بلدوين فلم تخبرنا المصادر حتى إذا كانت عنده رغبة في ذلك ويبدو أن بلدوين لم يقدم أية مساعدة للصليبيين عندما توجهوا إلى بيت المقدس حيث كانوا يعانون من نقص الخيول والمؤونة، كما تفشت فيهم المجاعة والطاعون عندما استولوا على معرة النعمان وخبرنا وليم الصوري أن القوات الصليبية عندما كانت في معرة النعمان كانت تقدر بعشرة آلاف رجل منهم فقط ثلاثمائة وخمسين فارساً - بينما يقدرهم ريمون داجيل بثلاثمائة فارس فقط وحفنة من المشاة - ويذكر وليم الصوري أن الدوق جودفري قرر زيارة أخيه بلدوين قبل زحفه مع القوات الصليبية المتجهة إلى بيت المقدس وذلك بعد رجوعه إلى أنطاكية بعد مشاركته في الحملة التي نجحت في الاستيلاء على المعرة في نوفمبر عام 1098م بخمسة عشر يوماً، ولم يذكر هدفاً لهذه الزيارة سوى ليسعد بالحديث معه -

والجدير بالذكر أن زحف القوات الصليبية نحو بيت المقدس بدأ في نوفمبر 1098م، بينما لم يلتحق جودفري بهم إلا في مارس 1099م بعد إلحاح شديد من الصليبيين، عندما كانوا يحاصرون عرقه وربما حاول جودفري إقناع بلدوين بمشاركة بقية القادة في حملتهم أو ما يسمونهم حجهم لبيت المقدس إلا أنه فشل في ذلك، ولا يستبعد أن بلدوين قدم لجودفري مساعدة تطبيقاً لحاظه - وبلغت انتباهنا ذكر ريمون داجيل تأخر جودفري في الزحف نحو بيت المقدس وزيارته لأخيه بلدوين في الرها، وكذلك أخبرنا أن كثيراً من الفرسان الصليبيين هاجروا إلى الرها.

ويذكر ريمون داجيل أن الصليبيين استطاعوا توفير ألف فرس عربية من مدينة شيزر قاموا بشرائها من حاكمها المسلم، وكانت الأموال التي اشترؤا بها هذه الخيول من مال غنائم غنموها قرب شيزر وهي ماشية لأهل

المنطقة، كما يذكر أن أمير حمص وأمير طرابلس وقرأ للصليبيين خيولاً كثيرة.

وفرض الصليبيون حصارهم على بيت المقدس في السابع من يونيو 1099م ووفقاً لرواية وليم الصوري فقد قدر عددهم بأربعين ألفاً نصفهم غير مقاتل، حيث كان منهم عشرون ألف رجل وألف وخمسمائة فارس فقط. وهنا يتضح لنا مدى ما كانوا يعانونه من نقص الخيول، بينما يقدر وليم الصوري عدد المدافعين عن المدينة بأربعين ألفاً، وهو - طبعاً - عدد مبالغ فيه.

ولا تهمنا تفاصيل سير الحصار حتى الاستيلاء على المدينة المقدسة لأنه ليس من صلب موضوع البحث، ولكن يهمنا أن بلدوين الذي ربما كان يملك آنذاك نحو ألفي فارس لم يقدم لهم المساعدة اللازمة، كما أنه لم يشاركهم في الحملة وكأنه لا يعنيه أمر الاستيلاء على بيت المقدس وهو الهدف الأهم لكل الصليبيين، والذي من أجله جاء المشروع الصليبي الذي أعلن عنه البابا إربان الثاني في نوفمبر 1095م في مجمع كليرمون - كما عانى الصليبيون أثناء حصارهم لبيت المقدس من شح المياه وقلة الطعام مع أن الحصار امتد أربعين يوماً فقط.

وأحدث الصليبيون - عندما استولوا على بيت المقدس - مذبحة مروعة شارك فيها جميع القادة دون استثناء، وكان على رأسهم تانكريد وجودفري، ويقدر ابن الأثير قتلى المسلمين بسبعين ألفاً، بينما يقدرهم وليم الصوري بعشرين ألفاً منهم عشرة آلاف في المسجد الأقصى حيث تولى الزعيم تانكريد ذبحهم - ولربما كان من حسن حظ بلدوين أنه لم يشارك في هذه المذابح، ويبرر وليم هذه المذبحة بأنها قضاء عادل من الرب أمضاه في من دنسوا هيكل السيد بشعائيرهم الخرافية - يقصد المسلمين - وحرموه على شعبه المؤمن - أي حرموا على النصارى العبادة هناك، وهو تحامل واضح ضد المسلمين الذين ينعتهم وليم بالوثنيين.

ووقع خلاف كبير بين القادة العلمانيين ورجال الدين الذين قادهم أرنولف وأسقف كلابريا سابقاً والمطيرة حالياً، حول من تكون له زعامة بيت المقدس، هل تكون لحاكم علماني أم لرجل دين؟ ولم يحفل القادة العلمانيين باحتجاجات رجال الدين الذين قالوا للقادة العلمانيين - وفقاً لوليم الصوري - إن المسائل الروحية أسمى من المشاكل الزمنية وأعظم خطورة، مما يحتم أن تكون لها الصدارة، وفي رأينا أنه يجب عليكم - أي العلمانيين - قبل أن

تفكروا في انتخاب أحد لمنصب علماني - أن تختاروا رجلاً قضى حياته في خدمة الملك، ويرضى عنه الرب، ويكون قادراً على رئاسة كنيسة وتدير أمورها—، أما إن أبيتم وأعرضتم فإننا سوف نشجب كل ما قررتموه، لأنه يكون قد تم بدون موافقتنا، ولا يعود لهذا الشخص الذي اخترتموه ذمة في عنق أحد - وعموماً ضرب القادة العلمانيون بهذا التهديد عرض الحائط وانتخبوا جودفري شقيق بلدوين كحاكم لبيت المقدس تحت لقب حامي الضريح المقدس، وقام رجال الدين بالرد على العلمانيين، حيث تزعم أسقف المطيرة وأعوانه - بدعم من كونت روبر النرماندي - محاولة لاختيار أرنولف بطريراً لبيت المقدس.

ويهمنا ذكر هذا الموضوع لارتباطه بموضوع البحث، حيث سيتولى بلدوين مملكة بيت المقدس بعد وفاة أخيه في الثامن عشر من يوليو 1100م وستتوطد علاقته مع أرنولف هذا بالرغم من عزله من منصب البطريركية لبيت المقدس وتنصيب دامبرت - رئيس أساقفة بيزا - بديلاً عنه وذلك بعد خمسة أشهر من تنصيبه والغريب في الأمر أن بلدوين ربما كان له دور مهم في تنصيب دامبرت، حيث زار هو وبوهيموند بيت المقدس في أواخر ديسمبر 1099م وشاركا في مراسم تنصيب دامبرت.

ويخبرنا فوشيه الشارترى أن بوهيموند أرسل إلى بلدوين بدعوه لإكمال رحلتهما إلى القدس، ولكن بلدوين تأخر متحججاً بتهديد الأتراك لكونتيتته، ويخبرنا فوشيه أن بلدوين اصطحب معه جيشاً صغيراً لهذه الرحلة، وأن قواتاً جاءت من تسكانيا وإيطاليا بزعامة كبير أساقفة بيزا وهو دامبرت والتحقت بقوات كل من بوهيموند وبلدوين آنذاك، وبلغ مجموع قواتهما نحو خمسة عشر ألفاً، وكان اجتماعهم عند بانياس، كما يخبرنا ولیم الصوري أن قوات بوهيموند كانت كبيرة ولكنه لم يحددها - والغريب أن حجم هذه القوات التي خرجت في رحلة أشبه بالنزهة إلى بيت المقدس هو حجم القوات نفسها التي استولت على بيت المقدس والتي لم يشارك بها بلدوين وبوهيموند ويبرر المؤرخون اللاتين تخلف بلدوين وبوهيموند لحماية أملاكهما في الرها وأنطاكية، وذلك خوفاً من هجمات مفاجئة من قبل الأتراك، ويزعم فوشيه، أنه ربما كانت العناية الربانية هي التي أخرت بوهيموند وبلدوين، على أساس أنهما سوف يكونان أكثر فائدة لما قد يأتي أكثر من فائدتهما لما مضى - أي أن بقاءهما في إمارتهما أفضل مما لو اشتركا مع بقية القادة في الزحف نحو بيت المقدس كما يقول فوشيه عن

بلدوين وبوهيموند . ليس هناك شك في أن هذين القائدين - اللذين جاء فيما بعد مع رفاقهما - لا تنقصهما الشجاعة بالرغم من قدومهما متأخرين - ونحن لا نلوم فوشيه في الدفاع عن سيده وولي نعمته بلدوين كونت الرها، حتى إن وليم الصوري يزعم أن القادة الصليبيين قد قرروا بعد استيلائهم على أنطاكية أن لا يغادر كلا القائدين أرضهما . التي منحتهما إياها السماء .

وهنا يحاول فوشيه وكذلك وليم الصوري أن يبالغوا في شدة المصاعب التي واجهت هؤلاء في نزهتهم أي رحلتهم فهناك أناس كثيرون منهم ماتوا بسبب هطول المطر والبرد الشديد، وكذلك بسبب غارات المسلمين الخاطفة على طول الطريق وقلّة الطعام ووصلت هذه القوات بيت المقدس، وزارت الأماكن المقدسة، كما نصبوا جميعاً بطركاً لبيت المقدس هو دامبرت رئيس أساقفة بيزا الذي رافق قوات بوهيموند عند اللاذقية - وبعد تنصيبه قام دامبرت بتقليد كل من الدوق جودفري والأمير بوهيموند ثم عاد الجميع إلى بلادهم بعد الاحتفال بقدوم السنة الجديدة وهي سنة 1100م .

وبعد شهر من عودتهم دخل جودفري مع دامبرت في صراع قدم فيه جودفري تنازلات كبيرة لدامبرت، حيث منحه ربع مدينة يافا وتعهّد بتسليمه مدينة بيت المقدس حتى يتمكن جودفري من الاستيلاء على مدينة أخرى يتخذها عاصمة، كما تعهد أنه في حالة وفاته دون وريث شرعي تنتقل جميع ممتلكات جودفري إلى البطريرك دامبرت - وواضح جداً مدى ضعف جودفري الذي قدم هذه التنازلات الكبيرة إلى بطريرك كان هو وبقية القادة سبباً في رفعه إلى منصب البطريركية قبل شهر فقط .

وأرسل جبريل الأرمني - صاحب ملطية - إلى بوهيموند ليتسلم مدينته ويكون تابعاً له، فقام بوهيموند في يونيو 1100م يفقد نحو خمسمائة فارس نحو ملطية حيث فاجأته قوات كمشكين بن الداشمند صاحب -سواس وهزمته هزيمة ساحقة وسقط بوهيموند نفسه في الأسر، فوصلت الأخبار لبلدوين، حيث قاد قواته نحو -ملطية التي كان يحاصرها ابن الداشمند، ففك ابن الداشمند الحصار فتبعته قوات -بلدوين ثلاثة أيام وفقاً لرواية وليم الصوري حتى تفك أسر بوهيموند، ولكن بلدوين خاف أن يتقدم أكثر من ذلك فعاد إلى -ملطية واستلمها بنفس الشروط التي عرضها على بوهيموند -

وحدث أن مات جودفري في الثامن عشر من يوليو وفقاً لوليم الصوري أو منتصف أغسطس عام 1100م وفقاً لفوشيه - وسيكون هذا الحدث ذا أهمية كبيرة لبلدوين حيث سيستغل الفرصة لينصب نفسه أول ملك لبيت المقدس

الذي زاره فقط قبل عدة أشهر بعدما قام الصليبيون الآخرون بالاستيلاء عليه في يونيو 1099م.

الخاتمة

يبدو من زعم أولدنبرغ أن بلدوين الأول لم يفكر أبداً في فتح كنيسة القيامة - يقصد بيت المقدس - بل كان لديه نشاط جامع لإقامة مملكة خاصة به في الشرق - أنه كان محقاً في هذا الزعم إلى درجة كبير - فقد حاولت جهدي أن أقف موقف القاضي أمام مدعي هذا الزعم، ولكن الأحداث التاريخية وإجماع مؤرخي اللاتين - حتى أكثرهم دفاعاً عن بلدوين وهو - ولیم الصوري - على أنه كان مشغولاً بمشاريعه الخاصة وهي إقامة كونتية له في إقليم يقطن فيه أرمن وهم أخوة للصليبيين دينياً، وهي كونتية الرها، بينما هدف المشروع الصليبي هو طرد المسلمين وانتزاع بلادهم - فبلدوين القائد الذي لا يلتزم بإجماع قادة الصليبيين، حيث ينسلخ عن الجيش الرئيسي ويقود قواته نحو قليلىقة ويدخل في صراع عقيم مع تانكريد، وهو الذي يقبل دعوة أمير الرها الأرمني له بإشراكه في حكم الرها، فيرد جميله وإحسانه بالنكران والتأمر والتخاذل، فينفرد بحكم الرها ويتوسع على حساب القوى المسلمة في المنطقة، ويمضي بلدوين في الرها والقادة الصليبيون الآخرون مشغولون في إتمام المشروع الصليبي الذي تعثر طويلاً في حصار أنطاكية، وتأخر الزحف لبيت المقدس حتى مايو 1099م، ثم يستولي الصليبيون على بيت المقدس في يونيو 1099م، وكان بلدوين البويني ضيف شرف في الحملة الصليبية التي استغرقت عملياتها العسكرية الكبيرة حتى الاستيلاء على بيت المقدس أكثر من سنتين - ثم فجأة يصبح ضيف الشرف البطل الأساسي في الكيان الصليبي ويصير في أعلى مركز في هذا الكيان، وهو ملك بيت المقدس في ديسمبر 1100م، ولا أحد ينكر قوة شخصية بلدوين مقارنة بأخيه جودفري الضعيف الذي خنع لبطرك بيت المقدس، فقد وطد بلدوين ووسع المملكة التي كانت في مهدها عند استلامها ففتح مدن أرسوف - قيسارية وبيروت وغيرها.

فصارت حدود المملكة عند وفاته سنة 1118م تمتد في كل فلسطين الحديثة، كما فرض سلطة مملكة بيت المقدس على الإمارات الأخرى فصار السيد الإقطاعي لباقي الأمراء الصليبيين وربما يظن القارئ أن بلدوين صار

مخلصاً للمشروع عندما تولى أمر مملكة بيت المقدس الصليبية، بل إن بلدوين لم يتغير كثيراً فهو بلدوين المنحرف أخلاقياً والأناني والمراوغ فلا يضيره أن يغري ملك صقلية روجر الثاني ووالدته بصفقة غريبة، حيث يعرض - في سنة 1113م - الزواج من والدته روجر الأرملة ليستغل مالها في مشاريعه التوسعية لتوطيد مملكته، وذلك مقابل أن يتعهد بتسليم مملكة بيت المقدس لروجر الثاني في حالة عدم إنجاب بلدوين لوريث، والأغرب من ذلك أنه تزوج هذه المرأة وعلى ذمته في الوقت نفسه امرأة أخرى، وبعد أن يستنزف مالها - بعد ثلاث سنين - تنتزل عليه التقوى والورع ويتوب إلى الله حسب طريقته فيطلقها، وتعود المرأة المقهورة إلى ولدها بعد أن أضاعت مالها وكرامتها مع ملك مراوغ.

ولا يتسع المجال هنا لمزيد من التفاصيل في التأكيد على عدم استقامة بلدوين بعد توليه أمر المملكة، فطباع الرجل لم تتغير فهو الأناني الذي يطبق كل الطرق غير المشروعة ليصل إلى مصلحته الخاصة - وبما أنني حددت بحثي من الناحية الزمنية منذ خروج بلدوين في الحملة الأولى وحتى توليه لمملكة بيت المقدس سنة 1100م فإني أكتفي بما أسلفت في التأكيد على عدم إخلاص بلدوين الأول للمشروع الصليبي.

الهوامش :

وليم الصوري ، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: ترجمة حسن حبشي، الجزء الأول، الهيئة المصرية للكتاب، 1991م، تحت سلسلة تاريخ المصريين رقم 45، ص109-110.

وليم الصوري ، ج1، ص110-

وليم الصوري ، ج1، ص150-

صاحب الجستا ، ترجمة حسن حبشي، ص24-

وليم الصوري ، ج1، ص174؛ المؤرخ المجهول صاحب الجستا ، ص30-32؛ The Alexiade of Anna Comnena, P. 325, 340-341؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص273- يخبرنا ابن الأثير أن ألكسيوس كومنين اشترط على الصليبيين إعادة أنطاكية لها-

وليم الصوري، ج1، ص225؛ صاحب الجستا ، ص41-

The Alexiade, P. 318-

وليم الصوري، ج1، ص225-226-

وليم الصوري، ج1، ص222، 228؛ صاحب الجستا ، ص44-45؛ فوشيه الشارترى،

ص112-115، 117-

وليم الصوري، ج1، ص235-243-

- صاحب . الجستا ، ص 44-45—
- وليم الصوري، ج 1، ص 255-256—
- وليم الصوري، ج 1، ص 264-256؛ فوشيه الشارترتي، ص 120—
- وليم الصوري، ج 1، ص 329-330—
- وليم الصوري، ج 1، ص 268، 281-282؛ ريمون داجيل، ص 86، 163— لم يصرح ريمون داجيل بأسماء المتخلفين عن حصار أنطاكية إلا أنه يصفهم بالأنانية، ويذكر - باختصار شديد - خبر انفصال بلدوين البويوني عن الجيش الرئيسي نحو نهر الفرات بينما الصليبيون آنذاك يحاصرون أنطاكية، كما يخبرنا باختصار شديد عن استيلائه على الرها وخوضه معارك ناجحة ضد الأتراك.
- وليم الصوري، ج 1، ص 264-256؛ فوشيه الشارترتي، ص 117-120—
- وليم الصوري، ج 1، ص 318-325، ج 2، ص 28-29؛ فوشيه الشارترتي، ص 51-52؛ صاحب . الجستا ، ص 61-63؛ ريمون داجيل، ص 105-106، ص 165—
- وليم الصوري، ج 1، ص 340-341؛ فوشيه الشارترتي، ص 130— لم يذكر صاحب . الجستا مسألة حصار كربوقا للرها قبل مغادرته لنجدة أنطاكية، وربما تكون روايته هي الأصح.
- وليم الصوري، ج 2، ص 18-20؛ صاحب . الجستا ، ص 71-96، ص 100—
- وليم الصوري، ج 2، ص 21-26؛ ريمون داجيل، ص 155-156— يختلف ريمون داجيل مع .وليم الصوري حيث لا يذكر .بلدوين البويوني كأحد المشاركين في الحملة ولا كذلك بوهيموند—
- وليم الصوري، ج 2، ص 26-29؛ ريمون داجيل، ص 152—
- وليم الصوري، ج 2، ص 29-32—
- وليم الصوري، ج 2، ص 34-49؛ فوشيه الشارترتي، ص 142-144؛ صاحب . الجستا ، ص 103-106؛ ابن القلانسي، ص 136؛ ريمون داجيل، ص 169-172، ص 181-185، ص 216— يذكر ريمون داجيل أن كثيراً من الفرسان الصليبيين هاجروا إلى بلدوين البويوني، كما يذكر فوشيه أن قوات بوهيموند وريمون كونت تولوز هي فقط التي قامت بالاستيلاء على المعرة والبارق—
- وليم الصوري، ج 2، ص 94-117؛ ريمون داجيل، ص 226، 244— يقدر ريمون داجيل، عدد المقاتلين المسلمين المدافعين عن بيت المقدس بستين ألفاً وهو عدد مبالغ به كثيراً—
- وليم الصوري، ج 2، ص 122-127؛ فوشيه الشارترتي، ص 150-156، ريمون داجيل، ص 247؛ ابن القلانسي ص 137؛ ابن الأثير، ج 10، ص 283— يذكر "فوشيه الشارترتي أن رجال الدين قرروا أن لا يختاروا بطركاً لبيت المقدس حتى يستشيروا البابا" إربان الثاني والذي سيموت بعد أيام قليلة قبل أن يصله خبر استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وهو هدف مشروعه الصليبي الذي أطلقه في 1095م—
- وليم الصوري، ج 2، ص 142-150؛ صاحب . الجستا ، ص 120، لم يذكر صاحب . الجستا اختلاف قادة الصليبيين ورجال الدين حول من يحكم بيت المقدس— والجدير

بالذكر أن صاحب .الجستا ينهي كتابه بمعركة عسقلان التي ستقع بعد شهر من استيلاء الصليبيين على بيت المقدس أي في العاشر من أغسطس 1099م، كما أن المؤرخ .ريمون داجيل ينهي تاريخه تقريباً في نفس التاريخ وربما يرجع ذلك إلى أن هدفهم فقط الوصول للهدف الرئيسي للمشروع الصليبي وهو الاستيلاء على بيت المقدس الذي تحقق فعلاً—

وليم الصوري، ج2، ص172-173؛ فوشيه الشارترى، ص156؛ صاحب .الجستا ، ص120—

وليم الصوري، ج2، ص169-172؛ فوشيه الشارترى، ص161-166—
وليم الصوري، ج2، ص173-174—

وليم الصوري، ج2، ص183-184؛ فوشيه الشارترى، ص168-169؛ ابن الفلانسى، ص138؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص300— يذكر ابن الفلانسى أن هذه الحادثة كانت في الثاني عشر من صفر سنة 493هـ الموافق الأول من يناير 1100م أي حوالي قبل ستة أشهر عن غيره الذي يحددونه في يونيو 1100م—
وليم الصوري، ج2، ص187؛ فوشيه الشارترى، ص169-170—

Oldenbourg (z): Les C roisades, Editions Gallimard, 1965, P. 111.

مصادر البحث

أولاً - المصادر اللاتينية:

1) Fulcher of Chartres, "Historia Hierosolymitana". (A History of The Expedition to Jerusalem, 1095-1127) Eng. Trans. bt F.R. Ryan, ed, with an introduction by H.S.F. ink, Knoxville. 1969.

ترجمه إلى العربية أ— د— قاسم عبده قاسم تحت عنوان .الوجود الصليبي في الشرق العربي ، منشورات ذات السلاسل، الكويت، 1993م— ويسمى المترجم فوشيه ب.فوشيه الشارترى —

2) Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanum.

ترجمه إلى العربية أ— د— حسن حبشي تحت عنوان .أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، دار الفكر العربي، القاهرة، 1958م— ومؤلف كتاب .الجستا هو مؤرخ لاتيني مجهول وإن كان من المرجح أنه نورماني من أتباع القائد الصليبي .بوهيموند أمير .تارنتو ، وهو مؤسس إمارة .أنطاكية الصليبية، ويعرف هذا المؤرخ المجهول عادة بصاحب .الجستا—

3) Raimond d'Agiles, Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem.

ترجمه إلى العربية الدكتور حسين محمد عطية تحت عنوان .تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، دار المعارف، الاسكندرية، 1990م وكان .ريمون مؤلف الكتاب القسيس الخاص لريمون كونت .تولوز وهو أحد قادة الحملة الصليبية الأولى، ويسمى المترجم المؤلف باسم .ريمونداجيل —

4) William of Tyre, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum.

ترجمه إلى العربية الأستاذ الدكتور حسن حبشي تحت عنوان "الحروب الصليبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ضمن سلسلة تاريخ المصريين، والجدير بالذكر أن ترجمة عنوان كتاب "وليم الصوري" ، هو الأعمال المنجزة فيما وراء البحار — وصدرت الترجمة العربية في أربعة مجلدات: الأول يحمل رقم (45) في سنة 1991م، والثاني يحمل رقم (55) في سنة 1992م، والثالث يحمل رقم (68) في سنة 1994م، والجزء الرابع يحمل رقم (77) في سنة 1995م—

ثانياً - المصادر العربية:

- 1) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد: الكامل في التاريخ ، تحقيق مجموعة من المؤرخين، القاهرة، 1929م، المجلد العاشر—
- 2) ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1958م—
- 3) ابن العديم، كمال الدين: زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جزءان تحقيق سامي دهان، دمشق، 1954م—
- 4) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة: ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق أمدروز، ليدن، 1908م—

ثالثاً - مصادر أخرى:

- 1) Anna Comnena: The Alexiad, translated by E.R.A. Sewter, Penguin Classics, 1969,
- 2) Anonymous Syriac Chronicle, translated by A.S. Tritton as "The First and Second Crusades From an Anonymous Syriac Chronicle", with notes by H.A.R. Gibb, Journal of the Royal Asiatic Society, 1933.